

روضة الحكايات !!

(١١)

تراه في البحث مثل البحر !!

الدكتور

محمد عمر الحاجي



الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حليوني - جادة ابن سينا

ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

www.almaktabi.com

عجبٌ... عُجابٌ!!

في لقاءٍ ضمَّ الأصدقاء ، وذلك بسبب توافدِهِم
لعيادة صديقهم (يامن) الذي داهمَهُ المرض منذ
أيام... ، كان هناك سهرةٌ رائعة ، حيث تجاذب
الأصدقاء أطراف الحديث ، وتناقشوا في بعض
المواضيع التي تهَمُّهم .

وكان نجم السهرة (عبد الخالق) ، فقد أصفى
على جوِّ السهرة الفرحَ والمرحَ ، وذلك من خلال
الفكاهات والألغاز التي وجهها إلى أصدقائه... ،
حتى إن (يامن) كان يقوم من فراشه يريد
المشاركة ، وقد نسي أوجاعه وما هو فيه..!

وبعد أن تناولوا القهوة بالحليب... وأكلوا
بعض الحلويات... قال (عمير) لصديقه
(يامن) : لقد سمعتُ منك ذات يومٍ عن وجود
مكتبةٍ عامرة في بيتكم ، وهي ملك والدك ، ولكنني
حتى الآن لم أشاهدُ شيئاً .

فابتسم (يامن) وقال : إن مكتبةَ والدي قد
ملأتُ جدرانَ الغرفة الكبيرة ، وقد بدأت تمتد منذ
شهور إلى صالون البيت...!!

ثم نادى (يامن) أخاه الكبيرَ (سعدون)
وقال له :

لا بأس أن تصحبَ صديقنا (عمير) إلى
الغرفة الكبيرة.. وإلى الصالون ، فهو يحب الاطلاعَ
- ولو سريعاً - على مكتبة والدي...

فقال (سعدون) : يبدو أنه من الذين يعشقون
الكتاب... ويحبون اقتناؤه...!!

فقال (عمير) : وهل هناك أفضلُ من مجالسةِ
الكتبِ ؟ إنها الصديقةُ الوحيدةُ التي لا تغتابُ أحداً
بل هي مليئةٌ بالفائدةِ والنفعِ والخير... .

... واصطحب (سعدون) صديقَ أخيه..
وتركّه يشاهدُ الكتبَ والمجلداتِ والقصاصِ
والمجلاتِ .

واستغرق (عمير) ... بل استمتع كثيراً...
وردد أكثر من مرّة : ليت عندنا مثل هذه
المكتبة... ، وليت والدي يستبدلُ التحفَ التي في
بيتنا والتي لا روحَ ولا جِراكَ فيها ، ليتَّه يستبدلُها
بالكتبِ التي كلما جلستَ إليها حدّثتكَ بما هو
مفيد... .

ثم أخرج من جيبه بعضَ الأوراقِ وراح يسجّل
بعض الملاحظات... .

... وفجأة سمع (عمير) صوت جرسِ الباب ،
فأراد العودةً مسرعاً إلى غرفة صديقه (يامن)...
ظناً منه أن وجوده في غرفةِ الكتبِ قد يُزعج والدَ
(يامن)...

... وفتح (سعدون) الباب ، واستقبل والده
مبتسماً... ، فقال الوالدُ مازحاً : ما الذي يضحكك
يا عزيزي !؟

قال (سعدون) : لقد وجدنا من أصدقاء أخي
(يامن) نسخةً عنك...!

ولما دخلا الصالون... قدّم (سعدون) إلى
والده صديقَ أخيه بقوله : هذا الشابُّ من عشاقِ
الكتب... إنه (عمير)...

وسلمَ والد (سعدون) على (عمير)...
واصطحبه إلى مكتبه... وراح يحدثه عن هوايته

في اقتناء الكتب ، وقدم له بعض النصائح
والإرشادات... ثم التفت إلى يده ، فرأى فيها بعض
الأوراق ، فسأله : هات ما عندك من ملاحظات
يا عمير .

... ابتسم (عمير) وقال : لا ، أحب أن أقولها
أمام الأصدقاء... عسى أن تجعل فيهم دافعاً نحو
حبّ وعشق الكتب...

وبالفعل ، دخل (أبو سعدون) ومعه
(عمير) إلى غرفة (يامن).. وبعد السلام
والترحاب... اطمأنَّ الوالد على ولده... وقال له :
لقد شفاك الله وعافاك... ونسيت كلَّ شيءٍ - حتى
المرض - وذلك عندما زارك الأصدقاء والأحباب...
فذاك فضلٌ من الله ورحمة...

... وراح (عمير) يحدثهم عن بعض ما رأى

وشاهد... في مكتبة (أبي سعدون) لكن أعجب
ما قاله :

... لقد رأيت عدّة مجلّداتٍ ضخمةٍ... ، فاقتربت
منها فإذا عددها يتجاوز (١٣) ... أخذت أحدها ،
فإذا عددُ صفحاته تزيد عن (٦٠٠) صفحة ، فقلتُ
في نفسي إن عدد صفحات هذا الكتاب يتجاوز
(٩٠٠٠) صفحة !!

... فنظر الأصدقاء... بعضهم إلى بعض...
وقالوا : فما هو اسمُ ذاك الكتاب ؟

قال (عمير) : إنه (فتح الباري شرح صحيح
البخاري) ، لابن حجر العسقلاني...

... ولكنّ الأعجبَ من ذلك أنني - وأنا أبحث في
المكتبة - رأيت كتاباً آخر من عشرة مجلّدات
كبيرة... ، فاقتربت منه ، فإذا هو لابن حجر أيضاً ،
وعنوانه (لسان الميزان)...!!

ثم انتقلت إلى الحائط الغربي للمكتبة ، فإذا
بي أرى عدة مجلدات ضخمة ، ولها عنوان واحد هو
(الإصابة في تمييز الصحابة) ... وهو أيضاً من
تأليف الحافظ (ابن حجر العسقلاني) !!!

* * *

محاضرة قيّمة عنه

وسأل والد سعدون الشابّ (عمير) قائلاً :
ما هو رأيك في أن تترجم حياة الحافظ (ابن
حجر) وتنقلها في محاضرة مسائية من
محاضرات الموسم الثقافي للمعهد ؟

وهكذا كان فعلاً ،... ومما حفّظه الناس من
المحاضرة :

في عائلةٍ فضليٍّ وعلميٍّ وتقويٍّ وورعٍ ، وفي العام
(٧٧٣هـ) ، وفي مصرٍ وُلد الحافظ ابن حجر
ونشأ وترعرع فيها... ، وكالعادة فقد انكبَّ على
قراءة علوم عصره ، خاصة علوم الشريعة...

وتفقه على يد كبار العلماء مثل (البلقيني)

و(ابن الملقن) و(العراقي) و(الهيثمي)
و(العز ابن جماعة) وغيرهم..

بعد ذلك عمد إلى الترحال ، لا من أجل المال
والجاه ، إنما من أجل تحصيل العلم .

لذلك كان - رحمه الله - كثيراً ما يردد :

وإذا الديار تنكرت سافرت في

طلب المعارف هاجراً لـدياري

وإذا أقمت فمؤنسي كُتبي فلا

أنفك في الحائنين من أسفاري

وكانت رحلته الأولى إلى اليمن ، حيث التقى

فيها بكبار العلماء والفقهاء ، فأخذ عنهم...

واستفاد منهم...

ثم كانت الرحلة الثانية إلى الديار الحجازية

المقدسة ، وكان هدفه منها هو ذات الهدف من

الرحلة الأولى .

وأما رحلته إلى بلاد الشام ، فكانت رحلةً
موفقةً ، حيث اجتمع فيها بأكابر العلماء ، أمثال
إمام قبّة الصخرة (عبدالرحمن المقدسي)

* * *

تفوّقه... . ونبوغه

تابع (عمير) حديثه بالقول :

ومن أهمّ العوامل التي ساعدت (ابن حجر) على التفوّق والنبوغ ، وتحصيل كثيرٍ من العلوم ، أنه نشأ في بيئة علمٍ.. فوالده.. وجدّه.. وأمه.. وأخته... وكلّ من حوله كان يُنظر إليه في العلم... إضافة إلى نشاطه ومداومته على طلب العلم ، بحيث كان يستغلّ كلّ دقائق حياته بالتعليم أو التعلّم ، وقد ورد عنه - رحمه الله تعالى - قوله :

(إنني لأتعبّ ممن يجلسُ خالياً عن الاشتغال) !!

هذا ، إضافة إلى الذكاء الذي وهبه الله إياه ، مع

القراءة السريعة ، والكتابة السريعة و.. ، ولذلك
أبدعَ في مجالاتِ التصنيفِ إبداعاً رائعاً .

حتى قيل لقد تجاوزتُ مصنفاته المئتين
والخمسین كتاباً!!

وكذلك كتب في جوانب كثيرة من العلوم ، حيث
كتب في العقيدة ، وعلوم القرآن ، وعلوم الحديث .
وفي التاريخ والتراجم ، وفي الفقه ، وفي علوم
اللغة وما إلى هنالك...

* * *

ليس التصنيف وحده!!

... والذي يتابع (ابن حجر) في تصنيفاته
الكثيرة ، يظنّ أنه كان متفرّغاً لها فقط ، لكن
ترجمة حياته تدلّ على أنه قام بأعمال أخرى ، بل
تحملَ مسؤولياتٍ كثيرةً ، وذلك من خلال تبوّئه
لبعض المناصب :

فقد مارس التدريسَ في المساجد والمدارس ،
حيث درّس التفسيرَ في المدرسة الحسينية ،
ودرّس الحديثَ في جامع ابن طولون ، ودرّس
الفقهَ في مدرسة الصالحية وغيرها .

إضافة إلى الإفتاء ، والقضاء ، والخطابة ،
والإمامة ، والوعظ و...!!

وامتازت مسيرتهُ حياتِه بالأخلاق الحميدةِ
الفاضلةِ ، فقد كان متواضعاً إلى حدِّ أنه لا يحب أن
يُقال عنه : عالم.. أو حافظ ونحو ذلك..

وكان إذا أُسيء إليه لا ينتصرُ لنفسه..
ولا يغضبُ.. إنما يردّد : (لا شكوى إلا إلى الله ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعم
الوكيل)...

وكان رحمه الله بعيداً عن التعصّب ، منصفاً في
البحث ، موضوعياً ، مخلصاً لله ، صادقاً مع
الناس ، تالياً للقرآن الكريم ، قائماً في الليل ،
مبتهاً إلى الله سبحانه .

* * *